ملف الندوة

العراق في الاستراتيجية الروسية

أ.م .د . بيداء محمود احمد

مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية

شكل الاحتلال الامريكي للعراق عام 2003 ضربة قوية للمصالح الاستراتيجية الروسية في العراق ومنطقة الشرق الاوسط عموماً، عندما فقدت روسيا واحدا من الانظمة السياسية التي كانت تتمتع واياها بعلاقات استراتيجية ارتكزت على اسس الدعم المشترك والحصول على المكاسب الاقتصادية التي كان من الممكن ان تجنيها الشركات الروسية النفطية لو حصل ورفعت العقوبات عن العراق، اذ كان العراق قد وقع مع روسيا عقودا نفطية تصل قيمتها الى مايقارب 40 مليار دولار لأستثمار عدد من الحقول النفطية في جنوب العراق، على ان تسدد هذه المبالغ بعد رفع العقوبات المفروضة اميا منذ عام 1990.

ان دراسة موقع العراق في الاستراتيجية الروسية تتطلب ملاحظة الآتي:

1- ان دراسة الاستراتيجية الروسية وموقع العراق منها لايمكن ان يتم بمعزل عن دراسة الاستراتيجية الروسية تجاه منطقة الشرق الاوسط عموما. اذ ان هذه المنطقة تقع في قلب الاهتمام الروسي من حيث تمتعها بالموقع الجيوبوليتيكي المهم، اذ انها من المناطق التي طالما سعى الاتحاد السوفيتي السابق وكذا وريثته روسيا الاتحادية لاقامة نوع من التحالف الاستراتيجي مع بلدانها املا في تحقيق موطئ قدم فيها وكذلك تحقيق حلم الوصول للمياه الدافئة. ولذلك نجد ان لروسيا دور في مجمل القضايا العربية ولاسيما قضية العراق، طالما ان العراق يعد جزءاً محورياً في منظومة الشرق الاوسط.

2- ان دراسة موقع العراق من الاستراتيجية الروسية لايمكن ان يتم بمعزل عن نمط العلاقات السائدة بين الولايات المتحدة وروسيا، كون الاولى هي القوة المحتلة للعراق، والثانية هي القوة التي طالما تمتعت بعلاقات استراتيجية معه حتى الاحتلال عام 2003. واذا كان البعض قد رأى ان المدة الممتدة من 1989الى 2003 شكلت انعطافة تاريخية في مسار العلاقات الروسية الامريكية، اذ انتقلت من الصراع الى التعاون والتنسيق في مختلف المجالات، فاننا نستطيع القول ان العلاقات الثنائية بعد ذلك التاريخ شابها نوع من التوتر والصراع الخفي. حتى عاد الصراع من جديد ليكون من نمط اللعبة الصفرية، اذ ان كل ربح يحققه الامريكان يعد خسارة لروسيا او العكس. ولكن الولايات المتحدة ولاسيما بعد احتلال العراق عمدت الى اخراج روسيا من دائرة اللعبة السياسية في العراق تحديداً، عندما انهت العقود التي كانت ستحظى بها شركات النفط الروسية في العراق، متذرعة بان الفوائد يجب ان تجنيها القوى التي شاركت في الاحتلال وحسب. يضاف الى ذلك ان الصراع مع الولايات المتحدة اتسع ليشمل اكثر من منطقة استراتيجية، اذ شمل توجه الولايات المتحدة للنفاذ الى المناطق التي كانت يوما ما تعد مناطق نفوذ روسية، لاسيما في اسيا الوسطى التي تريد الولايات المتحدة اقامة نوع من التحالف الاستراتيجي معها.

ومع صعود نجم الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ومحاولته استعادة روسيا لدورها العالمي المفقود، وامكانية العودة لعالم متعدد الاقطاب وليس عالم القطب الواحد، دخل الصراع مع الولايات المتحدة مرحلة مهمة، عندما اخذ يدور حول المناطق الاستراتيجية في العالم ومنها المنطقة العربية والعراق من ابرزها. ولذلك واذا كانت روسيا بعد الاحتلال لم تنتهج نهجا استراتيجا واضحا قائما على التدخل لصالح الحفاظ على مصالحها التي تضررت اثر الاحتلال، الا ان ذلك قد يفسر على انه محاولة من روسيا لترك الولايات المتحدة تغرق في المستنقع العراقي مما يؤدي لأنهاك جيشها واقتصادها،

فيما تستفيد روسيا من ارتفاع اسعار النفط لصالح كسب عوائد مالية تسهم في انعاش اقتصادها الذي لازال يعاني من بعض الاختلالات. ومن هنا ليس غريبا ان تتوجه روسيا لاقامة نوع من التحالف الاستراتيجي مع الصين، بعد ان ابدى الطرفان تاييدا لصالح التحول نحو التعددية القطبية بدل من ان يسود العالم نظام القطب الواحد. كما انه ليس غريبا ان ترى روسيا في ايران حليفا استراتيجيا مهما ربما يحقق لها احلامها عند التحالف معه في الوصول للمياه الدافئة، وكذا حليفا اقتصاديا قد تحقق روسيا معه بعض من اهدافها الاستراتيجية والتي من ابرزها تعزيز مكانة روسيا في الساحة الدولية بما يؤهلها للعودة قوة عظمى من جديد، والنهوض بالاقتصاد القومي، وتأمين سلامة اراضيها والحفاظ على امنها القومي. وفي هذا الصدد يقول وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف " سرنا خطوات مهمة على طريق انتهاج سياسة مستقلة في مختلف المجالات، ويمكن القول ان العالم بدأ يقتنع بأن روسيا القوية والواثقة من نفسها ليست ظاهرة موقتة بل تطور جدي عملت عليه الدبلوماسية الروسية ورسخته في شكل قوي ولفترة طويلة مقبلة. وتحول هذا الأمر الى عنصر مهم على طريق استعادة التوازن في العلاقات الدولية، والسير نحو ضمان الاستقرار في السياسة العالمية وتحولها الى مسارات مدروسة يمكن التكهن بها بدلاً من حال الفوضى". ومن جانب آخر فان روسيا تجد في تعاونها او تحالفها مع ايران خروجا من الطوق الذي تحاول الولايات المتحدة تطويقه بها، ففي غرب روسيا اخذ الحلف الاطلسي يزحف شيئا فشيئا نحوها، مع اصرار الولايات المتحدة على انضمام دول كانت سابقا من ضمن الاتحاد السوفيتي الى الحلف، وكذلك اختيارها لبولندا وتشيكيا لنصب الدرع الصاروخية المضادة للصواريخ الروسية، الامر الذي دعا قائد القوات الاستراتيجية الروسية الجنرال نيكولاي سولوفتسوف الى الاعلان عن ان عناصر الدرع الامريكية المضادة للصواريخ المتوقع ان تنشرها الولايات المتحدة في بولندا والجمهورية التشيكية، قد تصبح هدفا للصواريخ الروسية. وفي جنوبها وتحديدا اسيا الوسطى، فان الولايات المتحدة تحاول عقد تحالفات

استراتيجية مع بلدانها والتركيز على اقامة القواعد العسكرية، ومن جهة اخرى فان هذه المنطقة التي بدأت بعد انفصالها عن الاتحاد السوفياتي تتنازعها الاتجاهات الأطلسية التركية والأصولية والاتجاه الإيراني الأصولي أيضا ، ويبدو صعبا في ظل الاتجاه القومي المتصاعد في هذه المنطقة أن تعود إلى التحالف مع روسيا.الامر الذي يعني خسارة مضافة على صعيد المصلحة القومية الروسية. وفي الجنوب البعيد ، حيث منطقة الخليج العربي، فبعد احتلال العراق لم يبق امام روسيا سوى التعاون او التحالف مع ايران، لاسيما بعد ان انحدر التيار اليساري العربي الى ادنى مستوياته.

وهنا يطرح سؤال مهم مفاده: ما هو موقع العراق في الاستراتيجية الروسية؟ هنا الجواب يعتمد على طبيعة التوجه الاستراتيجي لروسيا، وطبيعة دورها القادم من حيث كونه عالميا ام اقليميا. فاذا ما عادت روسيا لممارسة دور فعال، فان العراق سيكون في اولوياتها، اما اذا بقيت روسيا تابعة في قراراتها للتوجهات الامريكية او مستمرة على سياسة الصمت السلبي، فان المخطط الاستراتيجي الروسي لن يكون بأمكانه التفكير بالانطلاق نحو ممارسة ذات الدور السابق.

وعموما، فان النظرة لطبيعة التأثير الروسي تتجاذبها رؤيتان: الاولى تقلل من اهمية الدور الروسي ان لم تنظر اليه بسلبية، اذ ترى أنه لا يمكن الاعتماد على روسيا على المدى الإستراتيجي أو على مدى الأشياء الكبيرة في السياسة، لكن يمكن الاعتماد عليها دبلوماسياً في الأمم المتحدة من حيث توفير الشرعية احيانا لبعض النشاطات او القرارت، والسبب في هذه الرؤية هو الاعتقاد بتراجع الدور الروسي.وتجد هذه الرؤية في الاستخفاف الامريكي بقرار الرئيس بوتين بأستئناف طيران القاذفات الاستراتيجية الروسية عندما صرح المتحدث باسم الخارجية شون ماكورماك بالقول أن روسيا تملك «طائرات قديمة» دليلا على الضعف الروسي من امكانية مجاراة الولايات المتحدة على صعيد السياسة العالمية. اما الرؤية الثانية فهي مغايرة للرؤية الاولى، اذ ترى في الدور الروسي دورا يمكن الاعتماد عليه، وهو الامر الذي تسير عليه ايران من حيث التقارب

إلاستراتيجي الواضح بين الروس وبين الإيرانيين، هذا التقارب يقوم في واقع الأمر على أساس هدف مشترك وهو استنزاف الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط بصورة واضحة، بمعنى اخر استغلال المأساة الأميركية في العراق لاستنزاف الولايات المتحدة الأميركية هناك لتعظيم المكاسب والأوراق الإستراتيجية لكل من الطرفين، وعليه يعتقد هذا الفريق ان روسيا ستظل أحد الأطراف الرئيسية على صعيد التفاعلات الدولية.

وفيما يتعلق بالعراق، نجد ان التحرك الاستراتيجي الروسي يرى ضرورة التأكيد على الاتي:

1- التاكيد على ضرورة عودة السيادة الكاملة للعراق عبر الاتفاق مع الولايات المتحدة وعن طريق الامم المتحدة عبر عقد اتفاقية دولية او عن طريق مؤتمر دولي.
2- ضرورة السيطرة على الاوضاع الامنية في العراق، اذ ترى روسيا ان العراق شهد حرباً إرهابية تخريبية واسعة النطاق وهي اتخذت أبعاداً اخطر مع دخول العنصر الإثني الطائفي ما زاد من مخاطر تقسيم هذا البلد وتفكيكه.
3- اكدت روسيا على دعوة السياسيين العراقيين الى التفكير بالخطوات العملية التي من شأنها تقليص درجة التوتر، وقالت روسيا انها مستعدة للمساهمة بنشاط في مسار تسوية سياسية تقوم على أساس الوفاق الوطني والحوار بين مختلف الأطراف العراقية الشرعية.
4- السعي للنهوض بالأقتصاد العراقي وامكانية الاسهام في ذلك، ومن هنا نجد ان روسيا اسقطت ما يقارب من 8 مليار دولار من ديونها على العراق.

ويلخص وزير الخارجية الروسي بريماكوف طبيعة الرؤية الروسية لقضايا المنطقة ومنها قضية العراق بالقول" أثبتت التجربة صحة الموقف الذي دعت إليه روسيا مراراً، اذ دلت التطورات المرتبطة بسياسة الولايات المتحدة في العراق وكذلك الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان، على فشل سياسة الاعتماد على استخدام القوة العسكرية لفرض أجندة سياسية، هذا مدخل خاطئ، قلنا ذلك اكثر من مرة منذ زمن بعيد، نحن نصر

على ضرورة التعامل مع كل أزمات المنطقة في شكل دبلوماسي سياسي، يقوم على تنسيق كل الجهود من اجل تجاوز المظاهر السلبية التي تراكمت في الشرق الأوسط على نحو خطر. وموقفنا نفسه يقوم في العراق على ضرورة إطلاق حوار وطني شامل، حان الوقت لدفعه وتعزيزه من اجل التوصل إلى وفاق وطني يشمل كل الأطراف بالتعاون مع الأمم المتحدة والمنظمات العربية المعنية وكذلك جيران العراق وخصوصاً إيران وسورية" .

وبناءً على ما تقدم، لايزال العراق يحتفظ بموقع مهم في الاستراتيجية الروسية، لكن هل تستطيع روسيا ان تؤثر في المشهد العراقي وتطوراته؟ هذا هو السؤال المهم. في هذا الصدد نرجح ان الدور الروسي لايزال ضعيفا من ان يؤثر في طبيعة المشهد العراقي، فروسيا ليست من دول الجوار التي تستطيع ان تؤدي ادوارا سلبية او ايجابية في العراق، ولاهي القوة المؤثرة امنياً بحيث تتمكن من فرض قرارات تخص العراق وامنه وسيادته. عموما لايمكن مهما كان الدور الروسي الحالي ضعيف ان نحكم بضعفه في المستقبل، فهذا الامر يتوقف على ما اذا نمت مخالب الدب الروسي من جديد، وعلى ما اذا صدقت اجتهادات السياسيين وتوقعاتهم في ان العالم مقبل على مرحلة التعددية القطبية مع تراجع مكانة الولايات المتحدة في مقابل صعود قوى اخرى على الساحة الدولية.